مدونة ابو عبدو

زياد بركات

سفر قصير الى آخر الأرض

قصص

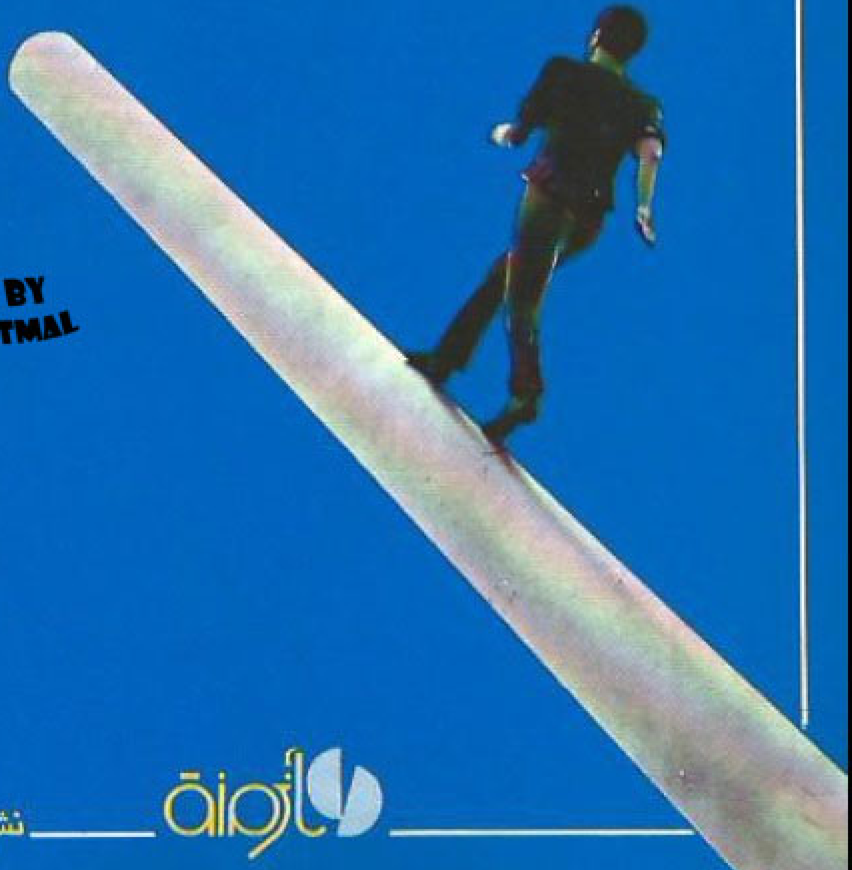

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

أزمنة

نشر بدعم وزارة الثقافة

ق

زيا زياد بركات

سفر قصير الى آخر الأرض / زياد بركات . ـ عمّان :

دار أزمنة للنشر والتوزيع ، ١٩٩٣

(٦٤) ص

ر . أ (١٩٩٣/٦/٥٨٣)

١ ـ القصة العربية أ ـ العنوان

(تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية)

رقم الإجازة المتسلسل : ١٩٩٣/٦/٤٠٥

□ سفر قصير الى آخر الأرض : زياد بركات

□ الطبعة الأولى : ١٩٩٣

□ جميع الحقوق محفوظة بموجب إتفاق وعقد

□ أزمنة للنشر والتوزيع

هاتف : ٦٨٢٥٤٤

ص.ب : ٩٥٠٢٥٢

عمّان ١١١٩٥ الأردن

[نُشِرَ هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة]

● صورة الغلاف: تكوين مجسّم للفنان الأميركي Jonathan Borofsky ● تصميم الغلاف : أزمنة ● خطوط الغلاف : زهير أبو شايب ● التنضيد والماكيت والطباعة : شركة الشرق الأوسط للطباعة ● تاريخ الصدور : تموز ١٩٩٣ ● عدد النسخ المطبوعة : ١٠٠٠ نسخة ● ثمن النسخة : ١,٢٥٠ د.

شعر

زياد بركات

قصص

سفر قصير الى آخر الأرض

أزمنة

لا بد أن يكون للإصدار الأول ، عند صاحبه/ صاحبته ، مذاقٌ خاص وحميمية خالصة. فالنشر ، للخروج على القرّاء بعمل يضمه كتاب، يشكل حالة أشبه ما تكون بنشوة الميلاد. أو فلنقُل : هو اعلانٌ جريء عن هوية أولى. هوية يكتنفها ما يكتنف ، عادة، كل جديد يصبو الى نُموّه وتطوره (ولا نقول إكتماله).

غير أنه ينبغي أن يتوفر للإصدار الأوّل ـ لأنه أول ـ شرط الحد المعقول من استقامة النص الفنيّة. لأنه ، بافتقاره الى هذه الإستقامة ، يفقدُ مبرره كما يفقدُ ، في الآن ، مشروعية صاحبه / صاحبته الكتابية. كما ينبغي، والحالة هذه ، أن يحمل هذا النص بشارته التي تشير إلى أن وراءه تقفُ موهبةٌ تمتلك عطاءً قادماً.

استناداً الى هذا المفهوم ، خصصت الدار هذه السلسلة الجديدة (تباشير) لتنشر من خلالها الأعمال الأولى التي يصدرها أصحابها ضمن الأجناس الأدبية : القصة ، والرواية ، والشعر، والنَصّ المفتوح.

هي تباشير حقيقية نأخذ على أنفسنا مهمة تقديمها ، بغير تردد ، إلى القرّاء، لنفسح لها موقعاً على مساحة الإبداع في الأردن.. لا بل على خريطة الثقافة العربية المعاصرة.

« أزمنة »

زياد بركات :

ولد زياد بركات في دير البلح / غزة ، عام ١٩٦٣ .

تخرج من جامعة اليرموك ، دائرة الآداب واللغة العربية، عام ١٩٨٧ .

نشر العديد من نماذجه القصصية في الصحف الأردنية ، وكذلك في المجلات والدوريات العربية .

يكتب زياد بركات النَصّ المنسحب من أُطر الأجناس الأدبية ، ويملك فيه أسلوبه الخاص المتميّز ، كما يتجلى هذا التميّز أيضاً في قصصه القصيرة .

بالإضافة الى القصة والنَصّ ، فإنّ لزياد بركات كتابات نقدية تشير الى وعي فنّي يتصف بالنضج اللافت .

يعمل محرراً في جريدة الدستور الأردنية .

«سفر قصير الى آخر الأرض» هي مجموعته القصصية الأولى .

المحتوى

عـودة المؤلف: زهير أبو شايب	٩
١ ـ المرأة الصـغيرة والنحيلة	١٧
٢ ـ الضحك الذي يشبه البكاء	٢٧
٣ ـ الدرجات التي لا تنتهي	٣٣
٤ ـ سأشتري لكِ طائرة	٣٩
٥ ـ يا لها من حماقة أن تقول لفتاة بأن السماء زرقاء	٤٥
٦ ـ لقد أمرتهُ عيناهُ فأطاع	٥١
٧ ـ ماري وقطتها البدينة ماغي	٥٥

كتبت قصص المجموعة خلال ١٩٩٠ ـ ١٩٩٣

عَـودة المؤلّف

زهير ابو شايب

أهـمّ مـا تـنـجـزه الأحـلام عـلى الإطلاق هو أنها تتـيح لنا أن نتـحـرّر من أجسـادنا، لنكتـشف أنها ليست نحن تماماً، وأنّ لنا وجـوداً آخـر غير الجـسـد؛ وجـوداً شـفّافـاً وخـفيفاً وقادراً على أن يتحرّك ويتشكّل بحريّة لا يوفّرها لنا الجسد.

إنّ الجـسـد، بـالـذات، هـو عـقـبـتنا الكبرى، ومـا (طاقيّة الإخفاء) و (بسـاط الريح) و (الفـانوس السـحري) ، في جـوهرها، سـوى حـيل للتـغلّب على الجـسـد وخلعه لأنّه يجعلنا مكشـوفين ومـهـدّدين دائماً؛ إنها بحث سرّي عن وجود سرّي كأنّه بلا جـسـد، يتـيح لنا أن نرى دون أن نكون مرئيّين، وأن نتسلّل إلى العالم وهو عارٍ وحقيقيّ.

لقـد ارتبط الخـفيّ بالسـحريّ والمقدّس في اللاوعي البشريّ، ممّا

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

جعل التخفي إحدى الحيل الأساسية التي عبّر الإنسان، من خلالها، عن نزوعاته وهواجسه وبحثه الدائم عن الحرية والخلود؛ إنّ اللغة، بحدّ ذاتها، طاقية إخفاء وبساط ريح وفانوس سحريّ في آن واحد، لأنها تجعلنا نوجد خارج الجسد وتعِدُ بحرية وديمومة عظيمتين؛ وفي الكتابة القصصية بالذات، نجد أثر ذلك واضحاً، والمؤلّف عادةً يتخفّى بالسارد ليتسنّى له أن يرصد ويتنقّل دون عوائق، وحين يختفي المؤلّف سيبدو النصّ كما لو أنه مقدّس لأنّ ذاتا سحريّةً خفيّةً هي التي أنتجته وقدّسته.

لقد كان القاصّ حريصاً على أن يبدو منفصلاً عن نصّه؛ كان يترك للسارد أن يفعل كلّ شيء بالنيابة عنه، بينما يستمتع هو باختفائه الذي يمنحه شعوراً بالقداسة. لكنّ اختفاء المؤلّف لم يكن حقيقياً تماماً بطبيعة الحال. وثمّة سبب واقعيّ لذلك، فالجسد، رغم كلّ شيء، هو مادّتنا التي تجعلنا موجودين، وحين تكون مادّتنا مهدّدة، فإننا نحلم بالاختفاء والطيران والتحوّل لكي نحميها. هنا يصبح الجسد حراً ويصبح الحضور مطلباً جوهرياً، وعلى صعيد الكتابة يصبح المؤلّف معنياً بخلع السارد وقمعه ليحلّ محلّه كما فعل ميلان كونديرا في (كتاب الضحك والنسيان) و **(خفّة الكائن التي لا تحتمل)**.

وفي **(سفر قصير إلى آخر الأرض)** يبدو زياد بركات مفتوناً بالمفاجأة التي حققها كونديرا، سواء على صعيد الرؤية أو الاسلوب. إنّ السارد هنا، كثيراً ما ينسحب ويعطي الكلام للمؤلف، ويظهر ذلك في التكرارات اللغوية الكثيرة التي لا

تضيف شيئاً الى البناء السرديّ، لكنها تضيء وجود المؤلف نفسه لا بصفته مصدراً خفياً للنص بل بصفته النصّ ذاته. ومن جهة أخرى فإن المرجعية الأولى هنا مرجعية جوانيّة مركزها الجسد، أما العالم البّراني فهو ليس سوى ظل شاحب يتحرك على ايقاع الذات ويوضّح وجودها.

إنّ الخبرة التي يقدّمها نصّ زياد بركات هي خبرة نفسيّة بالدرجة الأولى، تتمثّل في رصد أحوال الذات وعذاباتها وأشواقها الباطنة. إنّ الأشياء والشخصيات والأحداث هنا موجودة لتكون رموزاً. ولو ركّزنا قليلاً على رمزي الذكورة والأنوثة فسنجد أنّ قضية القمع في امتدادها الداخلي هي الهاجس المركزيّ لكافة قصص المجموعة.

من الملفت للنظر أن (الانيمة) ، في كلّ قصص المجموعة، تنتهي مقذوفة خارج الذات أو مفقودة أو منسحبة ومستسلمة، ففي (المرأة الصغيرة والنحيلة) ثمّة امرأة تقذف من الطابق الثالث، ومن المعلوم أنّ البيت، في التحليل النفسي، يرمز دائماً إلى الذات، وعند يونغ يرمز الطابق الثالث إلى الوعي، وهكذا نرى أنّ الأنيمة هنا تطرد خارج وعي الذات لتستقرّ ميتّة في الأسفل؛ أمّا في (الدرجات التي لا تنتهي) فإنّ الأنيمة تصعد درجاً لا آخر له وتختفي في السماء، وهكذا يتم طردها ـ خارج وعي الذات أيضاً ـ لتتلاشى في الأعلى.

إنّ الأنيمة هنا معطلّة وسلبية تماماً، أمّا الأنيم، كما يظهر مثلا في (الضحك الذي يشبه البكاء..) ، فإنّه يطوى في صندوق

معتم يشبه التابوت ويدفن حياً، ولكنّه رغم ذلك لا يموت ولا يتلاشى كالأنيمة. ولو رصدنا الصفات الفيزيائية لكلّ من الذكر والأنثى لوجدنا أنها مفصّلة تماماً لتلائم القمع الذي تتعرّض له الشخصيات ، ومع ذلك فإنّ الذكر يبقى ويقاوم فناءه بينما الأنثى تمحّي حتى لو لم تمت.

إنّ الهيئة هنا مجموعة أدوار نفسية أكثر من كونها صفات فيزيائية؛ إنّ الأنيمة في **(المرأة الصغيرة والنحيلة)** مثلاً ، هادئة؛ صغيرة؛ نحيلة؛ سنّها مكسورة؛ عيونها طيّبة سوداء صافية وكبيرة؛ جسدها أزرق ونهداها صغيران، وبالإضافة إلى ذلك فإنها غريبة وتدرس تخصّصاً لا تحبّه وتضع على عينيها نظّارة سوداء شمسية.

ليس ثمة شيء يوحي بالقوّة سوى العينين. إنّ مادّة الانثى هنا من الضعف بحيث تغري الرجل المهووس بقذفها من النافذة دون مقاومة. أمّا العيون فإنها، رغم سوادها وصفائها وقوّتها، طيّبة ومخفية بنظارة سوداء. لكنّنا نجد في **(لقد أمرته عيناه فاطاع)** عينين قادرتين على تركيع المحدّق فيهما، والهيمنة لا عليه فقط بل على صاحب العينين نفسه الذي ، برغم كونه طفلاً ، تأمره عيناه الواسعتان أن يموت فيموت. إنّ العينين الذكريّتين طاغيتان حتى لو كانتا عيني ذفل، في حين أنّ العينين الأنثويّتين طيّبتان ومخفيّتان لكي لا تمارسها أيّة سلطة على المحدّق فيهما.

هذه هي الفروق التقليدية التي تتحكمّ في تمييزنا بين الأنيم والأنيمة، فالأنيم يجب أن يكون قوياً حتى وهو طفل، والأنيمة يجب ، مهما قويت، أن تبقى مقموعة وضعيفة.

تبدأ قصّة (المرأة الصغيرة والنحيلة) بعبارة مكرّرة : «كان ذلك حينما كان الرجل نائمًا. كان ذلك حينما كان الرجل وحيداً جداً». إنّ النوم هنا مساوٍ تماماً للوحدة، وكلاهما متعلّقان بالرجل، ومنذ بداية القصّة سنعلم أنّ كلّ ما سيحدث فيها هو مجرّد حلم من أحلام العزلة يحلم به رجل نائم ووحيد.

إنّ المرأة التي يحلم بها ويحبّها امرأة جميلة. إنّ عينيها الطيّبتين كعيون الأمّهات(. . .) «تجعلانه يشعر بالأمان وبأنه ليس وحيداً في هذا العالم» ، ومع ذلك فإنّه «يرى نفسه وحيداً وسط هاتين الدائرتين السوداوين صافيتي السواد.. وحيداً وحزيناً». إنّ مشاعره ، منذ البداية، متناقضة، فهو يريدها لكي يشعر بالأمان ولكن عينيها تعرّيانه وتعزلانه ولذا فإنه بعد أن يضاجعها سيقذفها من النافذة لكي يتخلّص من الحزن والوحدة.

يمدّدها بجانبه ويبكيان، ثم يداعبها ويفكّ «أزرار قميصها الأبيض» ويأخذها بعنف. «قالت له: كنت تبكي وأنت نائم وكنت تأخذني بلا رحمة وأنت نائم، كنت تقول لي: هيّا بنا نطير بعيداً، هيّا بنا نخلّص هذا الولد من عذاباته..».

إنّ البكاء والعنف الجنسيّ يقتضيان من الرجل هنا أن يحلم بالطيران، فالطيران تعبير عن الكبت الجنسيّ وهو استعارة بعيدة للعبة (بساط الريح) التي تجعل الكائن كأنّه بلا جسد، وتخلصه بذلك من عذاباته. والعنف هنا مقدّمة لقتل الأنيمة الذي يشبه الطيران إلى أسفل في محاولة للتخلّص من المكبوتات وتحريرها.

في (الدرجات التي لا تنتهي) تسقط رلى ، بعد شهرين من

زواجـهـا ، في التـعـاسة ، وتلجأ إلى التدخين والتخيّل للتحرّر من عذابها. **«كـانت تجلس في البـاص وحـسب وتتأمّل الشارع الذي يهرب إلى الوراء حين تخيّلت نفسها تصعد الدرجات..»** في عمارة عـاليـة ، وحين تصل إلى السطح تجد درجـاً **«يصعد إلى الأعلى في الفراغ الأزرق الغامض»** وتصـعده، وفيما هي صاعدة تأخـذ بنزع مـلابسـها قطعة قطعة وتشعر **«أنها اصـغر في السنّ، اصـغـر مع كلّ درجة تخطوها إلى الأعلى»**. ومـع أنّ كـلّ هذا يحدث في مخيّلتـها وهي في الباص تدخن وتتنفّس بصعوبة، إلاّ أنّ الركّاب، **«ينتـبـهـون فـجاة إلى الكرسّي الفـارغ الذي كانت تحـتلّه رلى، فـقـد تبـخـرّت (...) دون ان ينتبهوا، ودون أن تعطيهم الوقت الكافي لاستيعاب ذلك»**.

إنّ الخـلاص الذي تنشـده رلى يشـبـه الطيران، ولكنّ (بساط الريح) هنا يقـذف رلى إلى الأعلى هذه المرّة حـيث الراحة والعري والخـفّة. إنّه صـعـود خـارج الجـسـد، فـالبـاص الذي يرمـز إلى الجماعـة، يراقب الذات ويقـمـعها، ولذا فإنّ الحريّة لا تكون إلاّ بـالاخـتـفـاء. والخـروج هـنا من البـاص ليس فـعـلاً ثورياً. إنّه انسحاب وخروج الجماعة لا عليها.

إنّ الأنبـمـة في القـصّتين السـابقـتين مطرودة إلى الخارج. إنها فـراغ مـوحش يمـلأ الذات، ولا يخلّصها إلاّ بالاختفاء. ونلاحظ هنا استعارة (طاقيّة الإخفاء) لإقـصاء رلى عن الباص لا لتغير وضـعـه الداخلي القـامع ، فـغـيـاب رلى لم يترك أثراً على الركاب الغافلين سوى الدهشة في حين أنّ الباص يبقى سائراً.

وفي **(الضحك الذي يشبه البكاء)** و **(لقد أمرته عيناه فاطاع)** نجد نموذجاً للأنيم المقموع الذي يلامس الموت. في القصّة الأولى ثمة ربط ذكيّ بين عمى الجدّ الذي يلعب دور الشاهد على المزائم، وبين هزيمة الحفيد الذي يتقوقع في العتمة، بين مشهد الرهبان الآسيويّين الذين يحشرونَ أجسادهم في الشقوق الصخرية ومشهد الحفيد الذي يُحشَرَ في صندوق كالتابوت، وعشيّة عيد الأضحى بالذات، حيث تساق الذاكرة إلى مفهوم تضحية الأب بأبنه كما فعل إبراهيم بإسماعيل، يلجأ الأب إلى وضع ابنه المخذول في صندوق ونقله إلى **«التسوية»** في الغرفة المهجورة **«التي تمتلىء بالفئران ليلاً وبالعاديات والأدوات الكهربائية المعطوبة والأخشاب نهاراً»**، ثم دفنه في النهاية في حفرة صغيرة.

إنّ التسوية رمز للاوعي، أمّا الفئران الليلية فهي رمز للمكبوتات التي تنهش الذات كالقوارض، وما عدا ذلك من المكنونات السفلية لا يرمز إلا إلى الخراب. إنّ الأنيم المهزوم هنا محبوس في اللاوعي ورهينة للمكبوتات التي تهدّد الذات. والدفن هو أسلوب في الخلاص لكنّه مع ذلك لا يؤدي إلى الاختفاء كما حدث للأنيمة، ففي اللحظة الأخيرة يعود الأب إلى الصندوق الذي حبس فيه الأنيم ويخرجه ثانية.

إنّ نموذج الأب هنا شبيه بالنموذج الإبراهيمي، وفي **(لقد أمرته عيناه فاطاع)** نموذج آخر هو نموذج الأمّ التي تركع لطفلها الطاغية. ومن الواضح أنّ هذا النموذج المريميّ مكمّل تماماً للنموذج الإبراهيمي وأنّ القصّتين تبدوان منشغلتين بقضيّة

واحـدة وعالم واحد.

إنّ الـطـفل يمـوت وهو طفل ، لكن بعـد ان يهيـمن على كل شيء ويروّض حـتى الموت الذي يناديه «بيا سيّدي ويا شقيقي الوحيد». إنّ موت الأنيم هنا ليس إلغاءاً له، فسلطته تمتدّ بحيث تجعل الأرض تبكي بكاءاً لن تعرف مثله أبداً.

هكذا ، بين نمـوذج الأب الإبراهيمي والأمّ المريمية ، يتحرّك الأنيم نفسـه متقمـصا تارةً شـخصـيةَ إسماعـيل، وتارة أخرى شـخصـيّة المسيح، ليكون في النهـاية ضـحـيّة للقـوّة، وضـحيةً للضعف في آن.

إنّ مـوضـوعـات زيـاد بركـات هي زياد بركـات نفسـه، إنّه كـالحالم الذي يرى نفسه في الحلم فهو الرائي والمرئيّ ، وفي الحلم يفـقـد الواقـعيّ منطقه وإحداثيّاته وتـحوّل الكينونة إلى وجود رخو يمكن للكائن فـيـه أن يمـوت عدّة مرّات وأن يصعد درجاً داخلاً في الـسماء وأن يـؤاخـي المـوت وأن يـنجـب فـتـاة مـن امـرأة لم يتزوّجها.

هذه هي عـوالم زياد بركـات. إنها ميـاهه الجـوفيّة التي يعرّش عليها كغريق.

المرأة الصغيرة والنحيلة

1

كان ذلك حينما كان الرجل نائماً.

كان ذلك ، حينما كان الرجل وحيداً جداً.

قالت له المرأة التي بسن مكسور وبعينين طيبتين كعيون الأمهات إنّ عليها أن تذهب الآن ، وشعر الرجل بحزن مكرور ، حزن عادي لا معنى له ، ذلك أنها قالت له كثيراً هذا الكلام ، قالت بأنها ستتركه وأنّ عليها أن تذهب الآن.

أول مرة شعر بحزن حقيقي، ذلك أنه يحبها ، ذلك أن عينيها الطيبتين كعيون الأمهات كانتا تجعلانه يشعر بالأمان وبأنه ليس وحيداً في هذا العالم.

كـانت امـرأة جميلة وكـان يحبـهـا ، كـانت عـينين كـبيرتين يرى نفسه يتـحـدث في بـؤبـؤيهما ، يـرى نـفـسـه وحـيـداً وسـط هـاتين الدائرتين السـوداوين، صـافـيـتي السواد. . . وحيداً وحزيناً ، من أجل ذلك شعر بالحـزن عندما قالت له أول مرة انها ستذهب وإنّ عليها أن تتركه.

كـان الحـزن يـسـقط في عـمق روحـه قطرةً قطرة ، كـان الحـزن ولداً صـغيراً ووحـيداً في هذا العالم ، ولداً لم يكن له أب يوماً ولم تكن له أم في يوم من الأيام:

من أجل ذلك فـانه فكّر أن يتحول الى طائر ، فتح النافذة، وفكر أن يحرّر الولد من خطأ الطبـيـعة هذا ، غير أنه لم يستطع الطيران، فقد تمزق جناحـاه من أول محاولة ، ووجـد نفـسـه في المسـاء بريش ممزّق وبعـينين متنـفـختين : فـتح زجـاجة وأخذ يشرب وفكّر أن ينام ولكنه اكتشف في صـبـاح اليـوم التـالي أنه كـان نائماً ، وأنها بجسدها النحيل والأزرق ممدّدة قربه. . وتبكي.

لم يفـهـم لماذا كانت المرأة الصغيرة التي يحبها كثيراً . . تبكي.

قـالـت له إنّه طوال الليلة الماضـيـة وهو يبكي ، من أجل ذلك فـانها تـبكي من أجل بكائه ، قـالت له : كنتَ نائماً وكنتَ تبكي ، لماذا تبكي في الليل كـثيراً يا حـبيبي ، قالت له : لن أتركك أبداً ، فأنت تثير حزني ولن أتخلى عنك.

ولم يفـهـم هذا الكلام جـيـداً ، فـهـو لا يذكر أنه كان يبكي. . لا في الـليل ولا في النهـار ، فـلا شيء يسـتـحق بكاءنا ، هذا مـا كـان يقـوله

لنفسه، غير أنه شعر بالفرح لأنَّ هذه المرأة الصغيرة ، نحيلة الجسم، بعينيها الطيبتين كعيون الأمهات ، لن تتخلى عنه ، ولن تتركه وحيداً.

لكن جسدها كان أزرق وبارداً جداً ، فحين أحب أن يداعبها وجد أنّ جسدها أزرق : فكّ أزرار قميصها الأبيض ثم رمى القميص بعيداً، ثم لدهشته وجدا أن امرأته بجسد أزرق.

قال لها : كيف حدث ذلك ؟!!

وأخذ يبكي وهو يغمر رأسه بين نهديها الصغيرين ، وشعر رأسه خشن الملمس القصير ينخز بشرة ثدييها الناعمين والصغيرين والمكتفيين بنفسيهما فقط في هذا الفراغ الذي تتركه الطبيعة على جسد المرأة حين تتعرى أمام رجل.

قالت له إنّه كان في الليلة الماضية يبكي.

قالت له : كنت تبكي وأنت نائم وكنت تأخذني بلا رحمة وأنت نائم، كنت تقول لي: هيّا بنا نطير بعيداً ، هيّا بنا نخلّص هذا الولد من عذاباته. . كنتَ تقول ذلك.

وكالملدوغ وبدهشة وجد أن جسده ممزق وأنه. . كأنه نزف دماً كثيراً.

قالت له إنّها قالت له : إنّ ذلك صعب يا حبيبي ، لا نستطيع أن نطير. وأنه أخذها بعنف مراتٍ ومرات ، كأنه بئر عاقر ، ثم لمّا تعب أخذ في قتلها : ألا ترى يا حبيبي!!

ورفع رأسه عن صدرها ونظر.

ـ لقد فعلت ذلك كثيراً. لقد رميتني من النافذة كثيراً يا حبيبي.

الرجل قال لنفسه : إن ذلك يحدث كثيراً ، ولكن لماذا يحدث له هذا الذي يحدث كثيراً ، مع هذه المرأة الصغيرة التي بسن مكسور ، المرأة التي يحبها كثيراً ويجد نفسه دوماً نائماً معها ويحلم بها بلا انقطاع. والرجل لم يفهم ذلك ربما لأن الأشياء التي نعرفها نجهلها ، فالمعرفة ألفة والألفة نسيان ، والمرأة نسيان دائم كما تعلّم من الكتب ، من أجل ذلك : قال الرجل لنفسه ذلك الصباح بأنه سيفتش عن المرأة، سيفتش عن النسيان ليجلو ذاكرته جيداً.

2

عند المنعطف ، بقرب السينما التي تعرض أفلاماً إباحية، وقبالة محلات الأجهزة الكهربائية والأحذية والملابس الأوروبية : يوجد كشك جرائد ، يجيء الرجل كل صباح ليقرأ جرائده ومجلاته وليشرب القهوة وهو ينظر الى الناس وهم يمرون ، ذلك أنه يريد أن يكتب قصصاً، والنقّاد قالوا له : عليك أن تصبح جزءاً من الناس حتى تكتب عنهم، والنقّاد كاذبون وهو لا يعمل فما حاجته الى العمل أصلاً ، إنه يكتب القصص ولا يعبأ بالنقاد والنقّاد لا يكتبون عنه، وهو وحيد ويشعر بالقرف فكل ما في هذه المدينة يشعره بالقرف.

في ذلك الصباح كان يقرأ عن فتاةٍ نحيلةٍ بسن مكسور أحبت رجلاً كئيباً وُجدت مقتولة في شارع ضيّق يشق صفين من البيوت الأنيقة في أحد أحياء هذه المدينة «المقرفة».

كانت تحقيقات الشرطة كما أوردت الصحف تشير الى أن الرجل

الكئيب قد قتل المرأة ثم رمى جثتها من نافذة شقته التي في الطابق الثالث، التي في بناية جميلة وأنيقة وإيجاراتها مرتفعة جداً ، وتابعت الصحف تقول إن الرجل ـ الذي كانت صورته وهو يبتسم تتصدر إحدى الصفحات الداخلية ـ لم ينكر أنه فعل ذلك ، بل قال إنّه قتلها لأنه يحبها . . وأخذ يبكي : ماتت وأنا أحبها .

وقالت الصحف إنّ الرجل ربما يكون مجنوناً ، وإنّ الفتاة المقتولة النحيلة وصغيرة السن كانت تدرس الفنون الجميلة في الجامعة وأنها ليست من هذه البلاد أصلاً بل ان أهلها بعثوا بها الى هذا البلد لأن مكان إقامتهم لا تتوفر فيه إلا جامعة واحدة ولا تسمح للأجانب المقيمين بالدراسة فيها ، لذلك بعثوا بها إلى هنا ، بهدوئها المحبب ونحولها الغامض لتدرس أيّ شيء ـ لا يهم ـ في إحدى الجامعات التي توجد في هذا البلد ، وأنها وجدت نفسها تدرس في أحد اقسام دائرة الفنون الجميلة ، لا لشيء!! إلا لأن فرع القبول والتسجيل قرر ذلك، وهكذا كان . .

الرجل الذي قتلها قال للمحقق : إن الحب هو القتل وأنا أحبها وهي لي وأنتم لا دخل لكم بين محبين اختارا أسلوب حياتهما وأسلوب حبهما الذي يلائمهما ، والمحقق قال له بأنه سيجعله يندم على ذلك اليوم الذي ولدته أمه فيه لأن بنات الناس «مش لعبة» .

الرجل طوى الجريدة وهو يشعر بجفاف في حلقه وقرر أن يكتب قصة عن رجل كئيب جداً ووحيد جداً يحب فتاة صغيرة بسن مكسور، ثم يقتلها من الحب وهو يشعر أنه بهذه الطريقة أكمل حبه وقضى على وحدته ، وأنه بقتلها أصبح هو هي ، وهي هو . . لا مجرد جسدين

تربطهما علاقة ، كلا : على العلاقة أن تنتهي ذلك أن العلاقة مسافة والحب ليس مسافة ، إنه داخل أبداً وفعل يدور بنا كأن الحبيب نحن، فأنت المحب والمحبوب معاً في الحب ، من أجل ذلك كان عليه أن يقتلها.

بدت له الفكرة مناسبة ، لذلك فقد اتصل بصديقته وقال لها بأن تحضر فوراً من سكن الجامعة الى وسط البلد حيث تعرف هي أين تجده، لأن هناك موضوعاً هاماً سيبحثه معها.

صديقته الصغيرة التي بسن مكسورة قالت له على الهاتف أنها ستحضر فوراً ذلك أن المحاضرات التي يعطونهم إياها في الجامعة مقرفة ، إنهم يحشون أدمغتنا حشواً بمعلومات كثيرة عن رجال مجانين سبق لهم أن ماتوا ولم يكن وراءهم إلا أن يخربشوا على الأوراق وعلى القماش المشدود كأنهم دون عائلات ودون مسؤولية أياً كانت ، طوال وقتهم يخربشون: ثم انهم ماتوا ، لماذا يدرسوننا دوماً عن مجانين . . ثم عن مجانين سبق لهم أن ماتوا وانتهى العالم من جنونهم؟!!.

انها فرصة : قالت له المرأة التي عيناها طيبتان كعيون الأمهات، من أجل أن نتصعلك في البلد ونتصفح وجوه أناس لم يسبق لهم أن ماتوا.

وأغلقت الهاتف.

عندما جاءت : كانت تلبس قميصاً أبيض ناصع البياض وتنورة زرقاء واسعة وطويلة تصل الى ما تحت الركبتين ، بفتحة كبيرة تكاد تصل ـ من الخلف ـ الى أعلى منتصف فخذيها ، وكان شعرها الأسود القصير مربوطاً بشريط أبيض من الخلف ثم يدفق طليقاً الى أن يلامس كتفيها ، مغطياً رقبتها النحيلة ملامساً حدود الكتفين بخجل مكبوت

وفـرح ، وكـانت عـيناها الطيبتان كعيون الأمهات محجوبتين خلف نظارة شـمـسية سوداء ، وكانت تحمل حقيبتها العريضة التي تضع فيها أشياءها الكثيرة.

الرجل اقترح عليـهـا الذهاب الى البـيت حـيثُ يسـتطيـعان التحدث بحـرية ، وقـبل أن يغادرا كشك الجرائد كان قد طوى الجريدة تحت إبطه ونقد البائع ثمنها.

قـال لهـا : في البـيـت نسـتطيع أن نتـحـدث بشكل أفـضل ، فكما تعلمين: فـان الهدوء الذي يلف البـيت يجعلنا نشعر أننا وحدنا أسياد هذا العالم ، وهذه اللعبة التي اسمها الحياة.

لم تخلع المرأة نظارتها السـوداء التي تحـجب عـينيـها بل وضعت ذراعها في ذراعـه وسـارا حـتى وجـدا نفـسـيهما في الشقة التي في الطابق الثالث، وفي البـيت خلعت نظارتها فـرأى نفـســه وحيداً يتحدث في بؤبؤي عينيها الســوداوين بصـفـاتهما النادر ، وكـان شـعـرها حين حلّت الشريط الذي يكبـتـه حـراً وطليـقـاً ويهـتـز حين قـالت له بأن يحدثها عن الموضوع الهام الذي وعدها بأن يتحدث فيه.

فـقـال لها وهو يداعب سنهـا المكســور إنَّ رجلاً كئيباً ووحيداً جداً قد قـتل امـرأة صغيرة بـسن مكسور ، أمس ، في هذه المدينة ، وأنه يفكر أن يحوّل هذه الحادثة الى قصة.

وحين أخـذ يفك أزرار قـمـيـصـهـا الأبيض ناصع البياض كان جسد المـرأة يـرتجـف ، وكـان نهداها الصـغيران باسـتـدارتهما اللامـعـة الملسـاء

يرتجفان تحت ذقنه غير الحليقة ، وكانت المرأة تبكي.

3

قال للمرأة : أنت تبكين كثيراً . . لماذا تفعلين بي ذلك؟! إني لا أحبه . .

فقالت له وهي تبتعد : ألم يسبق لك أن قتلتني ؟!

فقال لها دهشاً وهو يحدّق بخوف : لا ، لم يسبق لي أن فعلت ذلك.

عند ذلك ، أخذت المرأة تتحدث بعصبية كلاماً غير مفهوم ، وانقضت عليه بعنف وانتزعت الصحيفة من يده وفتحتها بعصبية على إحدى الصفحات وأشارت الى صورته في الصحيفة وهو يبتسم:

ـ أليس هذا هو أنت ؟! تكلّم !!

اقترب : كانت المرأة غاضبة وهو لا يحبها حين تغضب ، فحين تغضب تصبح امرأة أخرى غير تلك التي يعرفها ، تصبح أكبر سناً، وتنشأ لها تجاعيد صغيرة أسفل عينيها ، وتصبح عروق رقبتها نافرة وحادّة كأنها ستخرج من بشرة جلدها الصافية والناعمة وشديدة البياض.

اقترب بتردد محاذراً أن تغضب أكثر ، وسألها : عن ماذا تتحدثين؟ فقالت له : عن صورتك التي في الصحيفة . أنظر ، ووضعت الصفحة في وجهه.

تراجع. قال : أنا !! لا . . لا.

وصمت ، كانت المرأة العارية والغاضبة تذرع فراغ الغرفة بعصبية

وغضب.

قالت له : كم مرة قلت لك؟! كم مرة قلت لك؟!.

فاقترب حتى ذاب في جسدها النحيل الذي أصبح بلا مقاومة.

قالت له بصوت خفيض وهي تنهنه : كم مرة قلت لك أن لا تفعلها ثانية؟! كم مرة ستقتلني!! ألا تكفيك المرات السابقة؟!!.

فقال : ليس أنا .. ليس ...

وانهد على السرير وهو ينشج .

قال لها : تعالي هنا .

محاولاً أن يجعلها تفهم ، ذلك أن الوضع غامض والمرأة لا تفهمه، إنها جميلة وهو لا يعرف كيف أحبها وكيف تورّط في جسدها النحيل وبكائها الدائم حين يستفيق.

كانت قرب النافذة ، نافذة الشقة التي في الطابق الثالث ، عاريةً ونحيلة الجسد ، تتكيء بيدها على النافذة وتحدق من خلال الزجاج بالشارع الضيق ، فذهب إليها.

قال لها كأنه اكتشف شيئاً :

- هل ترين ؟ لقد رماها من هنا ، من هذه النافذة بعد أن ألبسها قميصها الأبيض وداعبها كثيراً ، قتلها من الحب.. هل ترين؟!.

فالتفتت إليه غاضبة ، وقالت : لست مقتنعة ، فقال لها بأنه سيفعل، فقالت له مذعورة : هل ستفعلها وتقتلني؟ فقال لها : كلا.

ومرّغ وجهه في وجهها الطيب كي لا يرى نفسه وحيداً في بؤبؤي عينيها السوداوين بصفاء نادر ، فلا يفعل ذلك.

وتابع : سأفعلها ، سأقنعك بذلك فقط ، فالذنب ليس ذنبي.

وألبسها قميصها الأبيض بعنف ثم رماها من النافذة.

الضحك الذي يشبه البكاء
« على وجه التقريب »
الى : زياد بركات وزينب وأخوتها

لقد كان ذلك منذ زمن بعيد.. أيام كان الناس يأكلون بعضهم بعضاً في الشوارع ، عندما اكتشفتُ تلك المتعة التي لا تضاهى ، فأن تدّخن في العتمة وأن تكون وحيداً ، منعزلاً عن أولئك الذي يأكلون بعضهم بعضاً فهذه هي المتعة الحقيقية التي لا تضاهيها أي متعة أخرى.

في البداية ، كان الأمر بسيطاً ، السجائر تشتعل من أعقاب سابقاتها وأنا أحدق في الدخان الأبيض الذي ينتهك السواد ، ثم اكتشفت أنّ عليَّ أن أجعل السواد أكثر كثافة ، فلا يكفي تقدم الليل لذلك بل لا بد من كثافة أخرى : ستائر سوداء سميكة وثقيلة القماش على النوافذ، لتمنع نفاذ أي ضوء.

ولقـد كان ذلك البياض الذي تُـحْدِثُه السجائر في تلك العتمة فاتناً ، مـثيراً للتأمل في الماضي ، كما لو أنه موت مطمئن .

إنني أتذكـر جـدي الآن وأغبطه على السواد الحقيقي الذي كان لديه ، فـبعينيه اللتين لا يرى بهما (فلقد كان ضريراً) كان يرى ما يريد وما نعتقد أنه ليس من الممكن أن يراه.

جـاءت دولة اسرائيل فـجأة وجـدي ضرير ، ثم جـاءت ثانية وجدي ضرير، ورغم ذلك كان يرى دائماً ما نعتقد أنه من المستحيل أن يراه. .

ذات عـام أخـذتنا الأم الى بيتـه ، وكـان هذا يعني أن علينا أن نعبر الجسر ثم نرى القـدس ، حتى نصل نائمين الى غـزة ، وعندمـا وصلنا أخذت يداه تعرفنا واحداً واحداً.

هل نضحك عليه أم على أنفسنا؟!.

أختـي الـكبيرة أعطتـه يدها في يده وقلّدت صـوتي ، غير أنه دون أن يـضـحـك أخـبرها بأنه لم يسلّم علـيّ بعـد ، وأنها تكذب على "جـدها" وناداها باسـمـها غاضباً فأجابت ، ثم ناداني بصوت خفيض فذهبت إليه فيما أخذت هي تبكي كعادتها بصوت عالٍ.

لقـد مرت سنوات طويلة على ذلك ، أثناءها ذهبت أختي الكبيرة الى غـزة أكـثـر من مـرة ، وكل مرة كانت تقلّد صوتي ، وكان ما إن يلامس نـبـض يـدها اليـمنى حتى يضـحك ويخبرها بأنه لم يسلّم علـيّ بعـد. . لتأخذ هي في البكاء كعادتها.

قلتُ في الســابق ان الأمـر كـان بسـيطاً ، ففي ذات عام خرجت من الـسـجن (كنا طلاباً آنذاك) وكنا نريد أن نغيّـر العـالم ، وجـاء من يخبرنا بأننا مجرد مـراهقين غير جـديرين بمهمة تغيير سراويلنـا الداخلية فما بالنا بتـغـيير العـالم؟!!. ولقد تم ذلك بكثير من القسـوة، مما جعلني أعود الى

البيت ضارباً عرض الحائط ببكاء الأم ولهفتها عليّ ، مغلقاً على نفسي باب الغرفة ، بادئاً بالتدخين : السجائر من أعقاب سابقاتها . . الى ما لا نهاية ، متأملاً هذا البياض الفاتن الذي كان ينتهك العتمة المتكاثفة ، مستمتعاً برؤيته يتلاشى بطيئاً في ذلك السواد الطاغي والمتغطرس .

غير أن الوضع أصبح اكثر تعقيداً ، فعندما جاء أخي من السفر وطلب رؤيتي وجدت كثيراً من المشقة كي أتعود على الضوء ، مما دفعه الى صبّ لعناته على الأب الذي لا يفهم الإبن «المجروح» الذي «انتهكت كرامته» ذات يوم ، ولم تنفع لعناته ولا توسلاته في إقناعي بمراجعة طبيب ، فلقد كانت الأمور تسير نحو نهاياتها المحتومة .

كيف حدث ذلك ؟

ذات مساء رأت شقيقتي الصغرى برنامجاً تلفزيونياً على القنال الأجنبي يتحدث عن رهبان شرق آسيويين يعيشون في الكهوف وبين تعاريجها الداخلية ، بحيث كان الجسد يتمدد بين شقي صخرة كأنه جزء منها ، وهذا ما كان يجعلهم يستغنون لا عن الطعام فحسب بل وعن الحياة ومباذلها أيضاً ، واصلين الى لذة التأمل الخارقة حيث الكائن نقطة صغيرة في كونٍ لا متناهٍ .

ولقد أبهجني ذلك أيمّا إبهاج ، وهذا ما جعل الأب يتحمس وأختي الكبيرة تبكي كثيراً كعادتها .

ذهب الأب واشترى خشباً ، ثم صنعَ ما يشبه الصندوق وتمددتُ فيه داخل الغرفة مستشعراً ذلك الحنان الذي لا يبثه إلا الخشب في جسد الكائن ، الحنان الذي يجعل الكائن يشهق من الحب كزهرة أو كصراخ .

لكن أختي الكبرى أخذت تضرب رأسها في الحائط والأم أخذت في البكاء بعد أن أخبرت أخي على الهاتف، أنه صندوق يشبه التابوت ذلك

الذي يعيش فيه أخوك.

ولقد اتصل الأخير غاضباً بالأب، متهماً إياه بأنه يكمل تلك العملية التي تعرضتُ لها أيام كنت طالباً، حاثاً الأب بغضب على تفهم رغبتي في العزلة دون إنسياق خلفها، فاذا كان (الولد) يريد ذلك فلأنه تعرضَ الى «خذلان العالم» وقمعه، وهذا ما دفعه «نحو العزلة» في فعل «هروب» لا مواجهة.

ولم يفهم الأب ذلك: خذلان العالم، نحو.. العزلة!! ماذا تعني الأخيرة بالضبط؟!

فأخبره أخي بأنه قابل طبيباً فقال له انَّ شقيقه الأصغر يعاني من خذلان العالم لأن هذا العالم لم ينسجم مع طموحه في التغيير، وأن الطين زاد بلة عندما قمعه هذا العالم ممثلاً بالسلطة السياسية وتخلى عنه رفاقه، وبهذا فقد أصبح «الولد» وحيداً.. بلا عائلة، ضالاً، فصب جام غضبه على نفسه لا على العالم، وذلك بالعزلة والرغبة في الاختباء، كأن لديه رغبة بمحو نفسه، بقتلها، لأنه يرفض أن يعيش في عالم خذله وخانه وعذّبه.

ثم رجا أخي الأكبر الأبَ بأن لا ينصاع لرغبتي في الصندوق، ثم أخذ يبكي من القهر:

ـ أنتم تقتلونه، كلُنا نقتله إذا إنسقنا لرغبته في الإختفاء.

غير أن الأب لم يفهم: محو نفسه؟!! جام غضبه؟!! ماذا تعني هذه الأشياء؟! ولم يستطع إقناعي بالكلام الكبير سابق الذكر.

المهم أيها السادة الكرام، يا من تورطتم بقراءة هذا الهراء، ان العائلة نسيتني أو تعوّدت على وضعي، وقد كان عليّ كي لا أحرجها أن أتعوّد على وضعها هي الأخرى وأتأقلم معه، ولقد حدث ذلك عشية

عيد الأضحى المبارك :

اكتشف الأب أن الغرفة الكبيرة يجب أن تهيأ لاستقبال ضيوف العيد ولا يمكن أن يتم ذلك إلاّ بإخراج الصندوق منها ، ودون أن ينقطع واحد منهم عن مشاهدة برامج التلفزيون حمل الأبُ الصندوق بكثير من المشقة لأن خَشَبهُ من النوع السميك لا بسبب وزني ، وصعد به الى غرفة في السطح ، وأخبرتني شقيقتي الصغرى التي كانت تتكىء على الصندوق فيما مضى من أيام أثناء مشاهدتها التلفزيون ، بأن لا أقلق، فستقوم هي بتعويضي عن عدم مشاهدتي برامج التلفزيون بإخباري بالتفاصيل المملة لآخر أحداث المسلسلات والأفلام واللقاءات التي يبثها التلفزيون بغزارة.

غير أنّ هذا الحل أيضاً كان مؤقتاً ، إذ حدث ما عكّر صفو الأب وذلك حين رأى ابن الجيران الصندوق في غرفة السطح فارتعب حين رأى ما يشبه التابوت وحين زكمت أنفه رائحة أقدامي الكريهة، فأخبر أمه التي أخبرت أباه الذي هزّ رأسه ، فلم تكفها هزة الرأس هذه فأخبرت أمي بشأن الفضيحة:

ـ تخبئون قتيلاً عندكم؟!! . . ماذا ستفعلون إذا جاءت الشرطة؟!! .

التي رأت تفادياً لسوء الفهم هذا أن تخبر الأب ليتصرف ، فخرج هذا بنتيجة مؤقتة أخرى نفذّها على الفور ، بأن قام بنقل الصندوق الى «التسوية» في الغرفة المهجورة التي تمتلىء بالفئران ليلاً وبالعاديات والأدوات الكهربائية المعطوبة والأخشاب نهاراً ، غير أن ذلك لم يكن حلاً نهائياً ، فبعد أقل من شهر تقريباً على إقامتي الفاتنة في تلك العتمة مستمتعاً بسماع أصوات الليل اكتشف الأب ضرورة الاستفادة من تأجير تلك الغرفة كمخزن لأحد صغار التجار مقابل دَين قديم ، فأخرج

الصندوق وظل ليلة كاملة يدخن وهو جالس فوقه ، متفكراً بطريقة للتخلص منه بأقل الأضرار وبالحفاظ على رغبتي فيه.

ولما كان كعادته محظوظاً فلقد رأى حفرة صغيرة في الحديقة الصغيرة التي تحيط بالبيت ، فقام بتوسيعها بعد ان ومضت في ذهنه عبقرية الخلاص الآمن والأقل ضرراً والتي توفر لي استمرار متعتي ثم وضع الصندوق فيها وأهال التراب عليه وصعد بعد ذلك ليتابع نومه بعد أن أعياه السهر والتفكير.

غير أن حلماً صغيراً قضّ مضجعه ، كان جدي فيه يلمس الأيدي فلا يعرف أصحابها ، فاستفاق غاضباً وساخطاً ومليئاً بالحيرة والخوف ، وهرول الى حيث الصندوق تحت التراب وأخذ يزيح التراب عن مقدمته : حيث رأسي ، ليدخل الهواء ، فلقد خشي الأب أن أموت خنقاً ، متناسياً كون الانسان مجرد نقطة صغيرة جداً في عالم لا متناه ، وبعد أن فعل ذلك تنفس الصعداء وصعد ليتابع نومه دون كوابيس كالمعتاد.

أمّا أنا أيها السادة . . قارئي هذا المراء ، فانني انفجرت في الضحك ولم أتوقف عنه ولن أتوقف عنه أبداً.

الدرجات التي لا تنتهي

لم تكن مستلقية ، في الحقيقة ، ولم تكن نائمة . .

كانت تجلس في الباص وحسب وتتأمل الشارع الذي يهرب الى الوراء حين تخيّلت نفسها تصعد الدرجات ، وللحقيقة فانها بعد الثلاثين أدمنت شيئين فحسب : التدخين والتخيّل .

في البداية كانت الأمور صعبة ، قالت لها أمها حين زارتها في بيتها بعد أكثر من شهرين من الزواج :

ـ ماما . . أنت تدخنين ؟!!

وحدقت فيها بدهشة وبذعر فيها يشبه رؤية امرأة عجوز لرجل شاب عارٍ فجأة ودون مقدمات .

كانت آنذاك في المطبخ ورأت تلكما العينين المذعورتين لأمها حين جاءها ذلك الشيء ، فأخذت تقطع البصل بعنف بعد أن أطفأت

السيجارة في المنفضة بعصبية: لن تجيب ، لن تبرر نفسها ، لن تدافع عن أي شيء ، فقط تود لو تبكي. . تبكي على صدر أمها بعنف وبحزن، وتقول لها. . .

مع تسارع حركتها في تقطيع البصل أخذت تنهنه ، وهي لا تدري لماذا أخذت الدموع تنهمر ، أبسبب رائحة البصل الحادة أم بسبب ذلك الشيء؟! وحين أخذت الدموع تنهمر بحيث لم تستطع السيطرة عليها اندفعت الى الحمام وانحنت على المغسلة وأجهشت بالبكاء. . بصوت عالٍ وبما يشبه النحيب.

والأم التي كانت بعيدة لم تسمع بكاء ابنتها ، لذلك ظلت في مكانها مندهشة ، فالبنت تدخّن ولم ينقض على زواجها إلا شهران، فلماذا تدخن رُلى؟! قالت لنفسها ، ولكي تبدد حيرتها ودهشتها فقد اخترعت سبباً سريعاً لتبرير ذلك ، فربما الأزواج هذه الأيام يفضلون النساء المدخنات!!.

بعد ذلك لم تشاهدها الأم إلا بسيجارة في فمها أو بين أصابعها، وأصبحت الأم تجاهر بأن ابنتها تدخن كثيراً ، ولم تعرف الأم أن رُلى التي كانت تحلم قبل الزواج أصبحت تتخيّل أيضاً ، ولم تعرف الأم أبداً أن رُلى أصبحت تتخيّل في نفس اليوم الذي رأتها فيه تدخن أول مرة، فحين أغلقت رُلى آنذاك على نفسها باب الحمّام وبعد أن انحنت على المغسلة وبعد أن انتهت من البكاء العنيف ، تخيّلت نفسها امرأة أخرى، إمرأة تشبه إحدى الشخصيات النسائية التي يقدمها «فالكون كريست»، أصبحت رُلى آنذاك «ماليسا» ورأت نفسها تموت وتُدْفَن ولا أحد يبكي عليها ، وحين خرجت من الحمّام قالت لها الأم ان عينيها حمراوان، فقالت لها رُلى أو «ماليسا» آنذاك ـ لا فرق ـ انها كانت تقشر البصل

لذلك فان عينيها حمراوان.

لقد حدث ذلك دون سبب واضح ، فللحقيقة فإنّ رُلى حظيت بالمقارنة مع غيرها بزوج رائع ، ورغم تأخرها في الزواج إلا انها تزوّجت ـ قبل الثلاثين بأشهر قليلة ـ رجلاً رائعاً وناجحاً عاملها برقة بالغة ،

والذي راود رُلى بعد شهرين من الزواج كان غامضاً ، فقد وجدت نفسها تدخن فجأة ، وبعد أن بكت في الحمّام تخيلت نفسها تقوم بدور، كماليسا الممثلة التي تقوم بدور يعْرَض على الآخرين من أجل إرضائهم أو من أجل أن تكسب رزقها، غير أنّ لها حياتها الأخرى خارج المسلسل.

لذلك لم تبكِ رُلى أمام أمها ولم تدفن رأسها في حضنها بل مثلت أمامها دوراً آخر، فيما وحدها في الحمّام المغلق قامت بالتعبير عن انفعالاتها الحقيقية دون كذب ، بعيداً عن عيون الآخرين.

بعد ذلك تطورت الأمور ، فقد تطور التخيّل الذي كان يشبه الابداع والقيام بتمثل شخصيتين منفصلتين الى أن أصبح التخيّل يمزج بين الشخصيتين في ذهن رُلى ، فذات يوم تخيّلت نفسها مجرد فتاة في الثامنة من العمر ، وعندما جاء زوجها في المساء كانت رُلى غارقة في تلك الفتاة ، وحين سألها مداعباً وقد أخذ شعرها بين يديه، عن ماذا تفعل ، أجابته رُلى بأنها في انتظار البابا..!!

ووسط دهشة الزوج الذي لم يعرف أب رُلى إلاّ من خلال الصور التي احتفظوا بها بعد وفاته، اكتشفت رُلى خطورة الإستغراق في التخيّل وأصبحت فيما بعد تجاهد كي لا يصبح التخيّل حقيقة.

وهي الآن في الباص حيث لا هي مستلقية ولا هي نائمة تحاول

جاهدة فيما هي تتخيل نفسها تصعد الدرجات أن لا تترك لتخيلها أن يسيطر عليها.

كانت الدرجات كثيرة ورُلى لا تدري كيف وجدت نفسها داخل ذلك المبنى ، ولا تدري كيف وجدت نفسها منساقة رغماً عنها أمام إغراء صعود الدرجات ، لذلك أخذت تصعد الدرجات في البداية بنشاط بالغ لتعرف الى أين ستوصلها هذه الدرجات اللولبية ، ولكنها بعد أن صعدت أكثر من ثلاثين درجة من هذه الدرجات شعرت بالوهن يسيطر عليها، وحين أحبت أن ترتاح وتخلص جسدها من هذا الوهن اندفعت بشكل لا إرادي في ممر طويل تبحث عن أي باب قد تصادفه، وقررت بأنها ما إن تجد أي باب حتى تفتحه وتدخل أياً كان القاطن وسترجوه أن يسمح لها بالاستلقاء على أي مقعد ، وداعب روحها أمل الراحة حين وجدت في نهاية الممر باباً اندفعت نحوه وفتحته بعنف. لتفاجأ رُلى ، لتصبح مفاجأة رُلى - التي تورطت بصعود هذه الدرجات دون أن تدري كيف ولماذا - عظيمة فقد كان الباب الذي فتحته يبدأ بدرجات عالية.

وصعدت رُلى وقدماها متعبتان ، فوجدت درجاً آخر يُفضي الى طابق آخر وآخر وآخر. . . ، وقالت لنفسها بأن هذه العمارة كبيرة وليس فيها إلا هذه الدرجات والممرات الطويلة التي لا تفضي الى شيء ، وخطر ببالها وهي تصعد أن تجلس على الدرج لتريح قدميها خاصة وأن لهاثها قد أخذ يتصاعد ، وفعلت رُلى ذلك. غير أنها عندما فعلت ذلك وجدت أنّ الدرج بارد جداً وانها لا تستطيع أن تحتمل هذه البرودة بهذه الشياب القليلة وهذا العمر القصير ، ووجدت أن تعب القدمين ووهن الجسد أفضل بكثير من هذا البرد الذي ينخر في العظام مباشرة؛ لذلك

تابعت الصعود.

في أثناء تخيّلها خطر لها أن تسيطر على نفسها أثناء التخيّل ، فقد شعرت وهي في الباص انها أصبحت تتعب أيضاً. وأن لهاثها العالي قد أصبح يسترعي انتباه الآخرين وتعاطفهم ، غير أنها لم تفلح، فقد وجدت نفسها تصعد الدرجات ولهاثها العالي يتصاعد ، وأخذت تتمنى لو تصل الى سقف العمارة لينتهي تعب القدمين ولينتهي هذا الدرج اللعين الذي لا ينتهي ، وقالت لنفسها بأنها ستلقي بنفسها عن السطح فور وصولها إليه لتستريح الى الأبد ، وهذا ما زادها إصراراً هذه المرة على الصعود أعلى فأعلى بأمل أمل الوصول الى نهاية ما تريحها من هذا التعب .

لقد صعدت رُلى رغم التعب الشديد عشرات الدرجات الحجرية. . مئات الدرجات ، آلاف الدرجات. . بتعب وتباطؤ مع مرور الوقت لكن دون كلل الى أن وجدت نفسها على السطح أخيراً.

وهناك بدل أن تتنفس رُلى الصعداء وجدت نفسها في حيرة بالغة، فقد كانت السماء زرقاء وثمة درج على السطح يصعد الى الأعلى في الفراغ الأزرق الغامض ، ولدهشتها وجدت نفسها منساقة لصعوده، مجبرة على ذلك دون تفسير واضح ، وما ضاعف حيرتها أكثر كان أنه رغم أن هذا الدرج كان بلا نهاية إلاّ أن شعورها وهي تصعد كان مختلفاً.

نعم . كانت متعبة وكان لهاثها يتصاعد أكثر فأكثر إلاّ أن شعورها المختلف هذا دفعها للتخفف من ثيابها أثناء الصعود ، لذلك أخذت تنزع عنها ملابسها قطعة قطعة. . وتلقي بها في الفراغ السحيق دون أن تلتفت الى الأسفل ، حتى أصبحت عارية ، عند ذلك انتابها شعور

مختلف آخر، فـقـد شعرت بأن الدماء تسري في عروقها من جديد لتجد نفـسـهـا أكثر فتوة وأقل تعباً بها لا يقاس بالمقارنة مع ما سبق ، ووجدت لدهشتها أنها كلما صـعـدت أكـثـر أصبحـت تشعر انها أصغر في الـسـن، أصـغر مع كل درجة تخطوها الى الأعلى.

في الحقيقة ، فقدت رُلى السيطرة على نفسها تماماً آنذاك ، أعني حين كـانت في البـاص حيث لا هي مـسـتلقـيـة ولا هي نائمـة وحين كـانت تـتخيّل، لم تستطع ، أبداً ، السيطرة على تخيّلها وإعادة نفسها الى حيث هي في الباص مجرد راكبة بين كثير من الركاب..

وبقـيـة الركـاب الذين انتـبهوا في البداية للمرأة التي تدخن في الباص والذين اعـتـقـدوا انها مريضـة لأنها كـانت تتنفس بصـعوبة ، لم يصدقوا أنفـسـهـم ـ وبلا شك سـيـحـدّثون أحـفـاد أحفادهم بذلك ـ حين انتبهوا فـجأة الى الكرسي الفـارغ الذي كانت تحتله رُلى ، فقد تبخرت ، أعني: لـقـد طـارت رُلى دون أن يـنـتـبـهـوا ودون أن تـعـطـيـهـم الوقت الكافي لإستيعاب ذلك.

ساشتري لكِ طائرة

1

كـان صـوتها الواهن الذي انطلق في هذا الظلام قـد أبهجني ، فـقلت لنفـسي : سـأسميها «حنين».

وغـرقتُ في ذهولي وأنا أســمع المطر في الخارج يتساقط بغزارة.

2

ـ بابا ، هل نستطيع أن نذهب الى المطار ؟

وقـفـزت دفـعـة واحدة وتعلقت بكتفيّ ، ثـم اختبأت في صدري دون أن تتكلم.

قلت لها بعد لحظات قصيرة :

ـ نعم ، سنذهب الى المطار.

وضحكت حنين ، تلك الضحكة التي تجلجل فتكسر سكون حياتي، الضحكة التي بذيول تلفني ، وتملأني بالبهجة التي لا تغادرني أبداً.

في الطريق . . قالت :

ـ بابا ، كم طائرة في المطار ؟

قلت :

ـ كثير .

ـ هل أستطيع أن أركب واحدة منها؟

فقلت لها متجنباً حماسها الزائد :

ـ سأشتري لك طائرة.

ـ تطير ؟!! عن جد ؟!!

ـ نعم ، وأنتِ تقودينها ، وتسافرين بعيداً عنا.

ـ متى ؟

فقلت وقد اكتسحني حزن مفاجىء :

ـ عندما تكبرين يا حنين ، عندما تكبرين.

3

قلت لها وهي نائمة كالملاك الأبيض ، فيما شعرها الأسود الناعم الجميل منسدل على وسادتها الصغيرة ، وذراعها الصغيرة البضة منثنية تحت الوسادة :

ـ اكبري يا حنين ، اكبري يا حنين سريعاً ، وغادري هذا السكون

الذي يلف حياتي.
فلم تستفق حنين ، يا الهي !!
لم تستفق أبداً .

4

ـ يجب أن ننجب أخاً لحنين.
قلت لزوجتي فيما هي تتثاءب بعد أن أغلقنا التلفاز .
فقالت لي :
ـ ومن أين نحضر الطفل ؟!
فضحكتُ ، وقلت لنفسي ما زالت زوجتي كما هي قبل الزواج، تكلمني كأني صديق يحبها وتحبه وهما يتجولان في طرقات الجامعة، حتى أنها تمازحني دون أن تعرف مشكلة حنين.
قلت لها :
ـ الآن نستطيع أن نحضر طفلاً.
فضحكت وأشرق وجهها الذي أحبه كثيراً.
قلت لها متابعاً وأنا أداعب أنفها الجميل :
ـ نحضر له أنفاً كهذا.
فتوّردَ خدُها كما قبل الزواج وأغمضت عينيها على نعاس لذيذ، ثم انزلقت أصابعي الى فمها:
ـ وفماً كهذا.
لكنّ أسنانها قبضت على أصابعي بعنف حتى كدت أصرخ، ونَظَرْتُها زاجراً ، وقلت بهمس وغضب:

ـ حاذري أن تستيقظ حنين .
فواجهتني بعينين غاضبتين ، وقالت بعصبية :
ـ حنين!! . . حنين!! حتى في السرير!! .

5

في الحديقة قلت لحنين :
ـ سنحضر لكِ أخاً .
فنظرت إليَّ باستغراب ، ثم أخذت خطوات الملاك الصغير تلوب بعيداً عني حتى وصلت الى صغار أصدقائي الذين أصروا على إخراجي من عزلتي الطويلة عنهم ، وأخذت تلعب معهم بفتور.
قلت لزوجتي وأنا أرقب حنين وفتورها المفاجىء:
ـ لا تريد أخاً .
فقالت وهي تلكزني في خاصرتي :
ـ وهل هذا وقته ؟!
وأشارت برأسها الى سمير ودينا وقالت :
ـ يبدو أنهما متحابان .
فقلت لها :
ـ تحتاج الفتاة الى أخ ، ألا تعين المشكلة ؟
فقالت لي وهي تضحك :
ـ بل إنها عقدة الذكورة لديك ، تريد أن تصبح أبا فلان ، أليس كذلك ؟!
وضربتني بغصن كانت قد اقتلعته من إحدى الشجرات ، برقة على

كتفي وأخذت تركض الى حيث يلتمون حول الفحم والشواء.

6

ـ حنين . . ما بكِ بابا ؟!!
كانت تبكي .
لا أشعر بأنني سجين حقاً إلآ حين تبكي حنين ، ناديت على أمها :
ـ هل أغضبت حنين ؟!
فلم تجب ، كانت تتحدث مع إحدى صديقاتها بالهاتف.
ضممتها الى صدري :
ـ ما بكِ بابا !! لا تنشفي ريقي .
فقالت وهي تبكي :
ـ أنتَ لا تريدني ، تريد أن تحضر ولداً آخر. . .
أنت ضبع . . .
وأخذت تضربني بقبضتيها الصغيرتين على صدري وعلى قدميّ ، وهي تهز رأسها الذي يتوجُه شعرها الناعم والأسود الجميل ، والذي جاء كما اشتهيته تماماً لها حين فكرتُ بإنجابها.

7

لكن ذلك لم يكن ، فزوجتي لم تكن زوجتي.
نعم ، أحببتها كثيراً حين كنتُ طالباً بائساً في إحدى الجامعات ولكنها لم تحبني كثيراً ، كانت تستلطفني فحسب ، لذلك تركتني

وتزوجت آخر قبل سنين ،

ومن يومها ، أقلعتُ عن حلمي بانجاب حنين منها ، وقررت أن أسمي إبنتي عندما أتزوج أي اسم غير هذا الاسم ، فهو يجعلني كئيباً ويفتح جروحي كلها .

يا لها من حماقة أن تقول لفتاة بأنّ السماء زرقاء

المرأة التي بوجوه متعددة والجميلة أيضاً تلتقي الرجل النحيل الذي لا يعرف من الدنيا غير الكتب ، فتربكه تماماً ذلك أنه لم يلتق إلاّ بنساء الروايات اللواتي أحبهن كثيراً ، واللواتي يستطيع وهو مغمض العينين أن يسرد ، بصوت خفيض وبلذة لا تضاهى في الوصف ، تفاصيل أجسادهن . فقد قرأ عنهن كثيراً في الروايات الكلاسيكية العظيمة للكتاب الروس والانجليز والفرنسيين .

حتى نساء نجيب محفوظ البضّات يعرفهن جيداً وإنْ كن في مخيلته يختلفن تماماً عن تلك النسوة الممثلات اللواتي قدمهن صلاح أبو سيف أو غيره حين عالجوا روايات محفوظ سينمائياً ، في مخيلته كن أكثر عذوبة وأكثر خداعاً وأكثر جاذبية وفتنة من كل الممثلات المصريات اللواتي قدمهن المخرجون المصريون للسينما العربية بزهو وفخار ، فأي امرأة

يمكن أن تكون بفتنة «نورا» التي قدمها محفوظ في «اللص والكلاب»؟ قطعاً.. لا توجد.

الرجل النحيل يلتقي تلك المرأة الجميلة التي أربكته تماماً، حتى انها تصرفت كطفلة حين اقترح عليها بحماس وارتباك أن يشتركا في إحدى المظاهرات التي تسير بكثرة في مدينته بسبب ودون سبب، لقد ضحكت بطفولة عذبة بعد أن سمعت اقتراحه ووافقت وسط دهشته وارتباكه بهزة رأس طفولية أكثر مما ينبغي لرجل نحيل، لم يسبق له أن عرف امرأة من لحم ودم من قبل، أن يتحمل.

وحين وصلا الحشد الضخم الذي كان يكتسح الشارع بهتافات متقاطعة كان شعوره بالتوازن الداخلي قد اختفى، فيما كانت هي تشعر بأن هذه الأجواء تناسبها تماماً.

أما لماذا زايله توازنه الداخلي؟

فلأنه رجل وحيد تعوّد أن يجالس نفسه في عزلتها ويخاطبها، وتعوّد أن يقرأ في الكتب المقدسة الثلاثة قبل أن ينام كل ليلة، وهذا ما كان يجعله مليئاً بالشفقة على الانسانية كلها وعلى شقائها، وهذا ما كان يجعله يستعلي على تفاهات تحدث في الحياة، من مثل ان رجالاً يخونون نساءهم ونساء يخن أزواجهن، وأن أصدقاء يتشاجرون حول أمور تافهة من مثل الأمور المالية أو النساء الفاتنات، فتنهار علاقات وتطلّق نساء وتنهار بيوت بأعمدة وغير ذلك من أمور محزنة.

كل هذه التفاهات وغيرها كثير كانت تحدث في الحياة وكان هو يستعلي عليها دوماً بنبل لا حدود له.

أما لماذا اقترح عليها أن تشترك في المظاهرة؟

فذلك عائد بالدرجة الأولى الى قراءته للكتب لا لتنازله عن

استعلائه، فلقد قرأ في أحد الكتب يوماً أن هناك وسائل متعددة لاستدراج النساء، ولمّا كان قد برّح به الشوق وفاض الشيء عن حده فلم تنفع معه كل أفلام السينما والفيديو الهابطة والوسائل الأخرى المتعددة، ولمّا كان في الفترة الأخيرة يستيقظ محموماً وهو يشعر بأن دمه فاسد وأنه بحاجة الى امرأة حقيقية من دم ولحم هذه المرة، فقد قرر أن يلجأ إلى إحدى الوسائل التي تجعله يتعرف إلى امرأة بسهولة، وهكذا كان ؛ ففي الأماكن العامة وبقليل من الدهاء تستطيع أن تلتقط فتاة جميلة وأن تنشيء معها علاقة دافئة تكون ذخراً لك بقية حياتك.

ولما كان يعيش في بلد صغير فيه كثير من المتحمسين الذين يخرجون في مظاهرات صاخبة كلما حدث اعتداء على كرامة أي مواطن منهم، متحدين رجال الشرطة (كان هذا يحدث في الماضي) ورجال السي آي ايه والأقمار الصناعية (يحدث هذا هذه الأيام بكثرة) بأنَفَة ورجولة، فقد تقدم من تلك الفتاة التي صادفها في الكوفي شوب تجلس وحيدة وتحتسي قهوتها ببراءة في الوقت الذي كانت تسير فيه إحدى المظاهرات من أمام المقهى، واقترح عليها أن يشتركا في المظاهرة وهو يشعر أن للكراسي عيوناً تطعنه في الظهر، فوافقت تلك المرأة التي ترتدي معطفاً وتنتعل حذاءً رياضياً ملائماً للمشي المرهق، وافقت بطريقة أدهشته الى تلك الدرجة التي لم يفهم فيها كيف تحوّلت دهشته الى سعادة غامرة وغامضة اكتسحت عناصره كلها، رغم أنه يعرف أن تلك الأشياء التي سيشاركان فيها هي أشياء تافهة.

أما لماذا وافقت تلك المرأة الجميلة؟ فهذا ما سنأتي إليه بعد قليل.

بعد أن سارا عشرات الأمتار في تلك المظاهرة الصاخبة اعتقد الرجل أن الظرف مناسب ليقول لها بأن السماء زرقاء، فقال لها بينما هما يسيران

وسط الحشد الغاضب على الامبريالية وتجبرها في المنطقة ، بأن «السماء زرقاء» ، وحاول أن يشحن تلك الجملة بشحنة شعرية بأن نطقها وهو ينظر الى السماء بنبرة مفخمة وحزينة .

غير أن المرأة لم تكترث لتلك الجملة ، فلقد وافقت على عرضه لأنها سئمت أصدقاءها الكثيرين الذين لم يعودوا يلتزمون بمواعيدهم معها ، وهي تعتقد انهم بطريقة ما سيشاهدونها تمشي مع هذا الشاب النحيل والجميل حد الخجل فيعيدوا لها الإعتبار ، لذلك لم تكترث لتلك العبارة التي كانت تقلب مصائر كثير من النسوة في القرن الثامن عشر أو ما قبل ذلك ، أما الآن فهذه العبارة لا تعني شيئاً ، خاصة وأن الامبريالية لم تترك للحب وقتاً ، فقبل قصة «ماو» وحكايته في حرق المراحل كانت هوليوود قد حرقت مراحل الحب كلها ، وأصبحنا بالتالي نفتقد الحب في حياتنا ، وأصبح أولئك الذين يحبون بجنون وبنَفَسٍ طويل مندثرين ، فلقد «مات الحب» .

وهذه الجملة تشبه «موت الله» عند نتيشة و«موت الانسان» فيما بعد عند ميشيل فوكو و«موت المؤلف» عند بارت .

«كلها موت في موت» قال لنفسه وقد احمرّت وجنتاه وهو يعتقد أنّ كل المتظاهرين سمعوا جملته الشعرية تلك ولاحظوا عدم اكتراث الفتاة لها ، مما أخلّ بتوازنه الداخلي كثيراً .

أما هي ، فشعرت بانسجام هائل مع الوضع الراهن وتصرفت بطفولة وبطيبة ، فالصخب جزء من شخصيتها ، وشعرت بمسام جسدها تتفتح لهذا الهتاف .

ثمة ما يتهيأ للعناق ، كان هذا وضعها ، والرجل بدل أن يمسك يدها أو يضع يده على كتفها تفوّه بتلك الجملة الغريبة «السماء زرقاء» !!

وقالت لنفسها : وما الجديد في ذلك ، فالسماء زرقاء منذ الأزل، وقررت أن تتجاهله.

□

كانت العيون تنظر وحَدَسَ أن العيون تراقبه ، فهَذه هي المرة الأولى التي يماشي فيها فتاة في الشارع باستثناء أخته.

مع الاكتظاظ وقوات الأمن التي على طرفي الشارع كان المتظاهرون يتراصون أحياناً ، وكان ذلك يبهج المرأة ، فثمة أكتاف كثيرة تحتك بها فتهيُجها ، ورافق ذلك عيون تنظرها بإلحاح فيما كان الرجل غافلاً، ففي الروايات لا تحدث الأمور بهذه السهولة ، والخديعة بحاجة الى وقت طويل، ولكن أنّى له أن يعرف ذلك!!

بعد ذلك بقليل احتكت الأكتاف بها ثانية والتقت تلك العيون الملحاحة بعينيها على نحو آمر ، فانسحبت المرأة وراء نداء تلك العيون المضمر ، تاركة الرجل النحيل وحده يفتش عنها معتقداً بأنه الزحام فحسب هو الذي أضاعها ، تاركة ذلك الرجل النحيل يملأ حياتي قرفاً وهو يسرد عليّ أولى مغامراته العاطفية ، طالباً مني أن أكتب ذلك.

فما كان مني ـ خاصة وأنني صديقه الوحيد في هذا العالم ـ إلاّ أن فعلت ، فكتبت بأنه من الحماقة أن تقول لفتاة بأن السماء زرقاء.. الخ.. الخ...

لقد أمرتهُ عيناهُ فأطاع

لقد ولد وحيداً

كانت أمه لا تعرف كيف حدث ذلك ، وكانت طوال عمره تراقبه بذهول وهو يكبر أمام عينيها .

«إنه ولد شاحب».
كانت تسمع النساء والرجال والصبية يقولون ذلك كلما رأوه يتجول وحيداً وكئيباً في الطرقات ، وكانت ترتجف لمجرد التفكير بأنه ولد شاحب.
وحين كانت تنظر في عينيه كانت تشعر بالخوف وتسمع دبيب خطى الموت تقترب ، فقد كانت عيناه كبيرتين على نحو مدهش وحزينتين بما

لا يطاق . وكانت تغض بصرها كلما كانت عيونهما تلتقي ، ولم تستطع الى الآن ، حتى بعد أن ماتَ ودُفِنْ ، أن تعرف لون عينيه ، فما كانت لتستطيع أن تحدّق في هاتين العينين الحزينتين . . الآمرتين على نحو مدمر، والمنكسرتين كأنها السماء نفسها ستنهمر بكاءً بعد قليل فيهما.

حين كان في الثانية من عمره حاولت الأم أن تحدّق في عينيه ، كانت تلك هي المرة الأولى والوحيدة . . ولقد رأت عينين آمرتين لطاغية حزين . . . طاغية مرهف ، وكأنها منوّمة دفعتها القوة الغامضة للركوع ، ولقد ركعت وهي ترتجف أمام قدميه ، ثم أخذت اليد الصغيرة البيضاء والناعمة كيد فتاة بين يديها ، وقبلتها وهي تبكي .

أما هو فلم يكن لينتبه ، فثمة أصوات أخرى تناديه ، أصوات تجعله وحيداً أكثر من صحراء لقيطة ، تدفعه ليحافظ على كنزه الوحيد هذا الذي لا يشاركه فيه أحد ، الذي لا أحد يقوى على الاقتراب منه ، كنزه الذي يجعله وحيداً أكثر فأكثر :

ولقد كانت وحدة قاسية ، وحدة تعوّد فيها ان يراقب آلام البشرية باستمرار ، وفي وحدته القاسية هذه لم يكن ثمة إلاّ الموت من كان يناديه بأسمائه المحببة ، من كان يستدرجه بنداءات متضرعة وحنونة ومغوية ومتوسلة .

كانت الأم فقط ـ تلك التي ركعت أمام حضرته الباهرة والمتوحدة والآمرة ـ من كان يشفق عليه ، هو الذي كانت شفقته تشمل البشرية كلها ، ووحده الموت من استطاع أن يراه :

كان بارداً كزجاج صقيل ، ووحيداً كخطيئة مهمَلة وملعونة ، ولقد

نظر اليه الموت فأمهله ، وفي الأثناء لمست يداه النهر فتدفق بالماء، والعشب فتطاول ، وعندما بكى حين بلغ : كانت دموعه كالفضة الباردة تسقط على العشب ، ولقد كانت دموعاً لا تتكرر لرجل سيموت صغيراً.

لم يعرف في حياته نساءً ، وجسده ظل طاهراً كعذراء أزلية البكارة، فما حاجته للنساء!!.

كان جميلاً كما يليق برجل وحيد وحزين ، وعندما لامست جسده الفتيّ الرعشة الأولى والعظيمة لم يبتهج كبقية الفانين بل سكب دموعه التي لا تتكرر على العشب ، صارت الرعشة عواء مكبوتاً لذئب جريح ومتوحد..

بعد ذلك صار يتحاشى النساء بترفع غامض.

في ذلك المساء وقد أمرته عيناه الواسعتان أن يموت ، خطا خطواته الجليلة والأخيرة نحو النهر ، فقد آن الأوان لكي يرى نفسه ، وفي صفحة الموت رآه : لقد كان الموت ، وحدّقا ملياً في بعضهما وكان حوار مقتضب بينهما ، ولقد كان جليلاً أن يرتجف الموتُ أمام العينين الآمرتين، عيني الطاغية الصغير والحزين والمرْهَف كأوتار مشدودة بلا نهاية ، ولقد كان جليلاً أن يناديه الموتُ بأسمائه المحببة ، بيا سيدي، يا شقيقي الوحيد.

وكان بكاء لم تعرف الأرض ، ولن تعرف الأرض ، بعد ، مثله أبداً.

ماري وقطتها البدينة ماغي

ولدت ماري في ٢٨ تموز من العام ١٩٦٦ ، وهذا يعني أنها من مواليد برج الأسد.

وكعادة مواليد برج الأسد تعتقد ماري أن من حقها أن تصمت وأن يتم التعامل مع صمتها باعتباره سلطة كامنة لا غروراً ، وبسبب طيبتها، وهذه صفة عامة يشترك فيها مواليد برجها ، فانها عرضة للإستغلال دون أن تدري أحياناً أو عن طيب خاطر في أحيان أخرى.

وأخيراً فإنّ ماري ليست محبة للأضواء وليست استعراضية وليست متأنقة بافراط كما يُوصف مواليد برجها عادة بل انها من البساطة بمكان بحيث تبدو بتصرفاتها الطفولية فتاةً تنتمي الى عصور سابقة لا تمتّ الى العصر الحديث ومباذله الكثيرة بصلة ، فجمالها يكمن في الروح لا في الأناقة أو الحرص على جذب الانتباه.

حين كانت ماري طالبة في الجامعة كان لها أصدقاء كثيرون ، وأستطيع من جهتي أن أؤكد أن ماري ما زالت عذراء الى الآن ، غير أن أصدقاءها الكثيرين انفضوا عنها بعد صخب الدراسة باستثناء اثنين ما زالا يريان ماري من حين الى آخر.

الأول ، كما هو متوقع ، شاب بدأ حياته شاعراً وانتهى محاسباً في شركة ، ما زال الى الآن يبعث لماري برسائل قصيرة ومتأنقة يتحدث فيها عن الحب الذي لا يذبل ، وعن السماء الزرقاء والقمر الحزين، وعن ليالي أرقه الطويلة.

أما الثاني فليس شاعراً بل متحمس وطني يعتقد أنه يجب فصل الدين عن الدولة في دول العالم الثالث لكي تحقق نهضتها الحقيقية ، ويكره التعصب، ولقد أُضطهِدَ بسبب ذلك كثيراً وسُجِنَ مرتين بسبب آرائه العلمانية هذه ، غير أن ماري تتعاطف معه إلى أبعد الحدود، وأستطيع أن أسرد الكثير من القصص عن تلك العلاقة الهادئة والغامضة بينهما وعن زياراته الى بيتها ورجائها المتكرر له أن يتحدث بصوت خفيض لأن موضوع الدين حسّاس في «العائلة».

إنهما يجلسان على الأغلب في حديقة البيت ، وأُمها تعتقد انه مسلم ويجب الابتعاد عنه ، أما الأب فله نظرة أخرى : فما ضَر لو احتكت البنت بفقراء الشعب ومثقفيه ، هو نفسه كان يفعل ذلك حين كان شاباً.

إضافة الى هذين : هناك ماغي ، صديقتها من أيام الجامعة أيضاً ، وهي أثيرة على قلب ماري. ولقد أخبرتني ماري ذات مرة أن ماغي من ذلك النوع من النساء اللواتي تعوّدن وضع رؤوسهن على صدر رجل، فحين كانت طفلة كان وطنها صدر أبيها الذي كان يفرط في تدليلها..

ـ تصوّر !!

قـالت لي ماري ، وتابعت بصوت خفيض :

ـ لقـد أجهضت مرتين حين كانت طالبة ولم تجد غير صدره هو لتبكي عليه خيانة المحبين الطائشين.

أمـا الآن ، فلا يوجد إلاّ صدر ماري لتبكي عليه ، فلقد مات الأب قبل سنوات قليلة.

لقـد هبط الليل فـجأة دون أن ننتبه ونحن نتحدث في الحديقة ، وحين هممتُ بالذهاب اقترحت عليّ ماري التي أربكتـهـا أحـاديثي أن نخرج سوياً ونكمل حديثنا ونحن نمشي . .

ولقـد سرنا في الشـارع المضـاء حتى وصلنا إلى إحدى دور السينما التي كـانـت تـعـرض آنـذاك فـيلم «الرجل الوطواط» لجـاك نيكلسـون وكـيم باسنجـر ، ولما كنت أعـرف هوس مـاري تجـاه الأشـيـاء الغـريبـة فلقـد أخـبرتها أن جـاك نيكلسـون حـصل على جـائزة أوسكار على دوره في هذا الـفـيـلم . . وأنه ممثل رائع ، ثم أخبرتها بحـزن كـيف انني قـضـيت ليلة كـاملة وأنا مكتئب الى درجـة حـرقتُ فـيـهـا علبـتي سجائر بعد أن رأيته يؤدي دوره الفـاتن في الفـيلم الذي حـصد عدة أوسكارات أيضاً : «وطار فوق عش المجانين».

وهكذا وافـقت مـاري بحماس جـعلني أترك أصـابعي في عتمة السينما تتـسـلل إلى قـمـيـصـهـا لتعبث بأزراره وربما تحته دون مقاومة تذكر ، خاصة وأن هذا هو الحد المسـموح به في علاقتي بها .

لولا ماغي : كالعادة .

فـبـينما كنا نشـاهد عـتماتنا الشـخـصـية في صالة السينما مثيرين حولنا

امتعاضا خجولاً من الرجل الذي أحضر زوجته وأولاده كلهم لمتابعة «الرجل الوطواط» أخبرتني ماري، فجأة، بعد أن سوّت قميصها بارتباك واضح بأنها ما كان يجب أن تترك ماغي وحدها... «في هذا العالم»، واقترحت علي وهي واقفة أن نغادر حالاً على أن نحضر في مرة قادمة لمشاهدة الفيلم بصحبة ماغي... ماغي التي أعرفها جيدا، والتي ما كانت إلاّ لتحدثني متغافلة عن وجود ماري بل مصرة على استبعادها من الحديث، عن شاعرتها المفضلة إميلي دكنسون وعن كونها ماتت صغيرة، وعن افتقادها للحب في حياتها، وعن شعرها الذي نُشِرَ أغلبه إنْ لم يكن كله مع رسائلها بعد وفاتها...

ولقد أخبرتني ماري بعد منتصف تلك الليلة عبر الهاتف أن ماغي تنام الآن على صدرها بعد أن ذرفت كثيرا من الدموع لأنها جاءت ولم تجدها، وقالت لي ماري:

- إنها تعتقد انني تركتها وحيدة... «في هذا العالم».

ثم بصوت خفيض:

- إنها لا تجد الآن سوى صدري لتبكي عليه..

بعد ذلك قابلتُ ماري عشرات المرات طوال عام كامل، كانت ماغي فيها دوما معنا: في الحديقة حين نتحدث عن الأديان أو عن الانتخابات النيابية أو عن «تحرير فلسطين»، أو في المقاهي حين كنا نشرب القهوة ونتفرج على صور العشاق المتناثرة حولنا، بل، إنَّ ماغي لم تفارقنا طوال تلك الجولات الليلية الطويلة في سيارة ماري وإنا اداعب أزرار قميصها أو ساقيها فيما هي تصرخ مستنكرة كي لا تصطدم بالسيارة التي أمامها.

ولم يحدث فراق فيما أعلم بين ماري وماغي أبداً، بل أنا الذي

فارقت . . وعن ذلك قصة سأرويها في الحال :

فلقد اكتشفت ماري ذات يوم أن ماغي تكتب رسائل، ولقد رمت رزمة الرسائل أمامي على الطاولة ذات غروب جميل وهي مختنقة من الغضب، ثم أخذت تبكي ذات مساء حين كنا في عتمة السينما لأن ماغي بلا صديق يحبها ويدعوها إلى السينما مثل بقية الفتيات، ورجتني طوال أكثر من أسبوع أن أدعو ماغي لمشاهدة «ذهب مع الريح» الذي كانت إحدى دور السينما تعيد عرضه.

ولقد كان لماري ما أرادت آنذاك.

غير أنها لم تكتف بذلك، أعني بالرسائل التي اكتشفتها وبدعوة السينما، فلقد فوجئتُ ذات مساء ونحن نغادر مجمع النقابات المهنية بعد حضورنا إحدى الندوات السياسية بأن ماري تعتذر عن عدم مرافقتنا، مقترحة أن نخرج أنا وماغي في مشوار في سيارتها على أن تعود هي إلى البيت بسيارة أجرة.

وعبثاً حاولتُ إقناع ماري باستحالة ذلك بالنسبة لي، إلاّ أنها تمسكت برأيها بعناد شديد، بعد أن قالت لي وقت انتحت بي جانباً، بصوت خفيض:

ـ إنها وحيدة. . ألا تفهم ذلك؟!!

عندها شعرت أن الوضع قد وصل إلى حدوده الخطرة، فاعترفتُ لماري بصوت متهدج بأنني أحبها، فقالت لي دون اهتمام بأنها تعلم ولكن علينا من أجل ذلك أن نتنازل عن أنانيتنا من أجل صديقتنا. فأخبرتها غاضبا بأن ماغي ليست صديقتنا بل إنها صديقتها هي فقط.

غير أن ماري ظلت مصرة على رأيها، وأمام إصرارها الغريب هذا أخبرتها بتوسل أن ماغي معقدة وأنها ليست بحساسية شاعرتها المفضلة

«دكنسون» فلو كانت كذلك لتركتنا وشأننا، غير أن ماري صمتت فجأة وتركتني وحيداً بعد أن استقلت سيارة أجرة، فيما كانت ماغي في السيارة تنتظر دون أي تعبير على وجهها.

فما كان مني إلا أن تركتها وحيدة وأخذتُ أمشي إلى مالا نهاية... إلى أن وجدت نفسي وجهاً لوجه مع ماري الغاضبة والصامتة والتي كانت تداعب شعر ماغي الباكية التي كانت تغمر رأسها في حضن ماري كقطة مدللة.

وقد حاولتُ عبثاً شرح الأمر لماري الصامتة والتي ظلت معتصمة بصمتها الغامض، ولقد اتهمتها في ذروة غضبي بأنها مغرورة وأنها كعادة بعض الأرستوقراطيين تستمتع برؤية مناظر الحب المذل والشاذ، غير أنها ظلت صامتة فيما انبرت ماغي فجأة لتنشب أظافرها في جلدي.

ففي ذروة غضبي استفقتُ على صراخ ماغي العنيف، وعلى اتهاماتها لي بأنني استغل ماري، وأنني مجرد تافه، وما حديثي عن الأديان وفصل الدين عن الدولة إلا للإيقاع بماري الطيبة واستغلالها من أجل ثرائها، ثم طلبت مني ماغي أن أخرج من حياة صديقتها وحبيبتها ماري، فيما ظلت ماري صامتة كقبر.

ولقد كان لماغي ما أرادت، فأمام صمت ماري الطويل الذي امتد لأكثر من ستة أشهر لم أجد أمامي حلاً... إلاّ أن أخرج من حياة ماري... إلى الأبد.

وهذا ما حدث فعلاً.

صدر في سلسلة «تباشير» :

- الخروج من «سوسروقة» . زهرة عمر ، رواية الشتات الشركسي .
- عصفور للريح . صلاح صلاح . قصص .
- الفجر والصَبيّة . جواهر الرفايعة . قصص .
- سفر قصير الى آخر الأرض . زياد بركات . قصص .
- صرخة البياض . جميلة عمايرة . قصص .

سفر قصير الى آخر الارض

زياد بركات

إنّ الخبرة التي يقدّمها نصّ زياد بركات هي خبرة نفسيّة بالدرجة الأولى، تتمثّل في رصد أحوال الذات وعذاباتها وأشواقها الباطنة. إنّ الأشياء والشخصيات والأحداث هنا موجودة لتكون رموزاً. ولو ركّزنا قليلاً على رمزي الذكورة والأنوثة فسنجد أنّ قضيّة القمع في امتدادها الداخليّ هي الهاجس المركزيّ لكافة قصص المجموعة.

... موضوعات زياد بركات هي زياد بركات نفسه، إنه كالحالم الذي يرى نفسه في الحلم فهو الرائي والمرئيّ، وفي الحلم يفقد الواقعيّ منطقة وإحداثياته وتتحوّل الكينونة الى وجود رخو يمكن للكائن فيه أن يموت عدة مرات وأن يصعد درجاً داخلاً في السماء وأن يؤاخي الموت وأن ينجب فتاة من امرأة لم يتزوّجها.

هذه هي عوالم زياد بركات. إنها مياهه الجوفيّة التي يعرّش عليها كغريق.

□

«. . ولقد حدث ذلك عشية عيد الأضحى المبارك: اكتشف الأب أن الغرفة الكبيرة يجب أن تهيأ لاستقبال ضيوف العيد ولا يمكن أن يتم ذلك إلّا باخراج الصندوق منها، ودون أن ينقطع واحد منهم عن مشاهدة برامج التلفزيون حمل الأب الصندوق بكثير من المشقة، وصعد به الى غرفة في السطح، وأخبرتني شقيقتي الصغرى بأن لا أقلق، فستقوم هي بتعويضي عن عدم مشاهدتي برامج التلفزيون بإخباري بالتفاصيل المملة لآخر أحداث المسلسلات والأفلام واللقاءات.

غير أن هذا الحل أيضاً كان مؤقتاً، إذ حدث ما عكّر صفو الأب وذلك حين رأى ابن الجيران الصندوق فارتعب، حين رأى ما يشبه التابوت وحين زكمت أنفه رائحة أقدامي الكريهة، فأخبر أمه التي أخبرت أباه الذي هز رأسه، فلم تكفها هزة الرأس هذه فأخبرت أمي بشأن الفضيحة:

ـ تخبئون قتيلاً عندكم؟!! . . ماذا ستفعلون إذا جاءت الشرطة؟!!».

أزمنة ص.ب [illegible] هاتف وفاكس [illegible] عمّان - الأردن